# على مبارك باشا ٣

قدمنا للقراء صورة واضحة من على مبارك الفتى ثم علي بك مبارك الشاب وآن أن نأخذ فى إيضاح الحياة العملية الخصبة لهذا الرجل العظيم، وهى ترتبط كل الارتباط بالأسرة العلوية الحاكمة

فعلى مبارك نموذج للموظف الكفء النشيط المخلص الذى ظل يعمل لخير أمته قرابة نصف قرن . فاذا نوهنا بأعماله فى المعارف فان أعماله فى الأشغال وغيرها لا تقل عنها شأنا ولكنا نكتب لمدرسى المدارس لتقلهم على مثال المدرس وناظر المدرسة ومدير المدارس ووزيرها وعسى أن يقيض الله مهندسا ليبرز أعماله من الناحية الهندسية فهى متصلة بالمشروعات القائمة الآن التى فتحت الخليج والماء والجمال والنظام فى مصر فى أغلب عهد اسماعيل وتوفيق . فأثره فى التعليم هو غايتنا الأولى ونعرج على غيره لماما

فى سنة ١٨٥١ م عهد إليه عباس باشا الأول إدارة المدارس وسلم إليه مقاليد الأمور فيها فاذا بصنع ولا كتب صالحة ولا معلمين ولا أدوات ؟ فصار منله مثل الفلاح الذى أعطيت له أرض بائرة وقيل له إن كنت جلدا صبورا بصيرا فصير لنا هذه الأرض جنات دانية القطوف، فصار المترجم يؤلف الكتب ويجلب المطابع لطبعها وإخراجها للمدرسين والتلاميذ ثم هو مع ذلك يعلم المعلم كيف يعلم، والتلميذ كيف يأكل ويشرب، وأصبح همه منع الضرب فى المدارس وأن يسود جوها الاخاء والمودة والإرشاد قال فى ذلك :

(وكنت أباشر ذلك بنفسى حتى أعلم التلميذ كيف يلبس وكيف يقرأ وكيف يكتب وألاحظ المعلم كيف يلقى الدرس وكيف يؤدب التلامذة ولا يمضى يوم إلا وأدخل عند كل فرقة وانتقد أحوالها مع التشديد على الضباط والخدمة فى القيام بما عليهم كما ينبغى، ولم أكتف بذلك بل جعلت على نفسى دروسا كنت ألقيها على التلامذة كالتنبيه والعبارة، وكان أمر المدارس كل حين لازدياد إلا صلاحا ولا التلامذة إلا نجاحا ولا المعلمون إلا اجتهادا، وكانت الامتحانات السنوية تشهد بمزيد الاعتناء وحسن الأسلوب ونجاح الطريقة المتبعة وجرت بين المعلمين الألفة وتربى الأطفال على الأخوة وغرس فيهم حب التقدم وشرف النفس والعفة حتى وصلت النظارة إلى الاكتفاء فى تأديب من فرط منهم بالنصيحة واللوم وانقطع الشتم والسفه وكاد يمتنع الضرب والسجن فكانت أفراشى فيهم أبوية أنظر إلى الجميع من معلم ومتعلم نظر الأب لأولاده، وإلى الآن أعتقد أن ذلك واجب على كل راع فى رعيته حتى يحصل الغرض من التربية)

ذلك كان فى حكم عباس ثم لما تولى سعيد باشا ظل المترجم مديرا للمدارس، وكان سعيد على غرار عباس فى عدم العناية الجدية بالمشروعات العامة. وعلى بك مبارك نشأ من أبناء الفلاحين الذين لم يكونوا ذوى خطر فى الحكومة، والشراكسة والأتراك هم المسئولون عن الادارات الرئيسية، فوشى به بعض حسود الى الوالى ففصله عن عمله وزاد الطين بله . أن أغلق مدرسة الهندسة التى جاهد على مبارك لانشائها وأن تبلغ النكاية به غايتها فيؤمر أن يسافر إلى الاستانة مع الحملة المصرية التى أرسلت لمساعدة الدولة العلية فى حرب القرم سنة ١٨٥٤ . وهكذا غادر مصر ذلك العامل النشيط وركب السفينة النيلية من القاهرة إلى الاسكندرية فخرج تلاميذ المدارس كبيرهم وصغيرهم قهرا عن ضباطهم ووقفوا بساحل النيل أمام السفينة يودعون مربى نفوسهم وأبائهم الشفيق وجعلوا يبكون ويتحيبون حتى بكى المترجم لبكائهم ورضى بقضاء الله وقدره، وأقام فى هذه السفرة سنتين ونصف سنة فلم يثنه عمله الحربى عن الاعمال المثمرة لمستقبل حياته، فتعلم اللغة التركية وتعب فى بلاد تركيا لمعرفة أخلاق الناس وعاداتهم وما يزال الخصوم وراءه حتى فرقوا بينه وبين زوجه قبل عودته إلى مصر وهكذا الحقد يأكل القلوب كما تأكل النار الحطب

ولما عاد إلى مصر من الحرب قاسى الأهوال التى تشيب النواصى فى عهد سعيد، وحسبك أن تعرف أنه إشتغل فى الوظائف العامة وفصل عن عمله أربع مرات بدسائس الواشين . ومن الأعمال التى تقلدها أنه اشتغل معلما أولا بعلم العساكر القراءة والكتابة، وقيل له أترضى ان تكون معلما لهؤلاء؟ فقال كيف لا أرغب فى تعليم أبناء الوطن؟ فكان ينتقل مع فرق العساكر إلى أى مكان حلوا فيه ويمر عليهم فى خيامهم، وتارة يكون التعليم بتخطيط الحروف على الارض أو بالفحم على البلاط حتى علمهم الخط وقواعد الحساب الأساسية، وكان يعلم الهندسة بالخيال والعصا لعدم وجود أدوات التعليم الهندسية وألف كتابا سماه ( تقريب الهندسة ) وعلمهم أيضا فنون الحرب، وحتى هذه الوظيفة استكثروها عليه فوشوا به ففصل، ولكن اليأس لم يجد إلى قلبه سبيلا فاشتغل بالتجارة، وجال بخاطره أن يعقد مع بعض زملائه المهندسين شركة لبناء البيوت وبيعها كالشركات التى نراها الآن فى القاهرة وفى مصر الجديدة وحدائق القبة فلم يجد من يوافقه ففكر فى إنجاز العمل بنفسه معولا على مضاء عزيمته وبينما هو كذلك يفكر ويقدر إذ مات سعيد باشا وتولى صديقه وزميله فى المدرسة بباريس الخديوى اسماعيل باشا فابتسم له الزمان وأنجز له المقدار وعده كذلك جزاء الصابرين .

وهنا أسلم اليه اسماعيل زمام التصرف فى المشروعات العامة ؛ ومن المعروف أنه فتح الخزائن وبذر الاموال ذات اليمين وذات الشمال وقال لمصر كونى جنة الدنيا فكانت ووجد فى على بك مبارك نشاطا فى العمل ووفورا فى العقل وعلما بالأمور وطاعة لولى الأمر فبدأ أعماله

بإصلاح القناطر الخيرية ثم وكالة ديوان المدارس وصار له النفوذ العظيم ورافق الخديوى فى رحلة إلى باريس وأخذ ينمى معلوماته فى التعليم بنظام المدارس فى فرنسا والاطلاع على الكتب المطبوعة . وبعد عودته منح رتبة باشا وأسندت إليه إدارة ديوان المدارس والأشغال والسكك الحديدية وبعد قليل ضمت إليه إدارة الأوقاف كل ذلك مع بقائه ناظرا للقناطر الخيرية واعتباره من ( رجال المعية ) خاصة إسماعيل

فالعقل الذى يدير كل هذه الأعمال لا بد أن يكون جبارا قديرا على الاضطلاع بالأمور قال فى ذلك ( فبذلت جهدى وثمرت عن ساعد جدى فى مباشرة تلك المصالح فقمت بواجبها )

والذى يعنينا أن نبسط القول فيه هو تنظيم المدارس وإدارتها

كان مركز المدارس فى منطقة العباسية وكان فى ذهاب المعلمين والتلاميذ إلى هذا المكان السحيق جهد ومشقة وليس فى القاهرة إذ ذاك طرق مواصلات كالتى نراها اليوم فاستصدر من الخديوى إذنا بنقل المدارس إلى قصر مصطفى باشا فاضل بدرب الجماميز وجعل كل مدرسة فى ناحية منه وأصبحت المدارس وإدارتها فى وسط المدينة وبذلك سهل على المعلمين والتلاميذ الذهاب إلى المدارس وتضاعف عدد الطلاب وكان يفتش على المدرسين والتلاميذ بكرة وعشيا ثم فكر فى إصلاح المدارس وتنظيمها فى المدن والقرى أيضا ووضع لائحة المدارس المشهورة بلائحة ١٠ رجب سنة ١٢٨٤ هـ لتسير المدارس فى القطر المصرى على مقتضاها وأنشأ كثيراً من المدارس الابتدائية فى المديريات وأصلح المكاتب وأدخل فيها علوماً حديثة وكذلك مدارس ديوان الأوقاف وقد كان مديراً لها فأصلح الخرب واستخدم جانبا من أموال الأوقاف فى الانفاق على التعليم العام بعد أن كادت تضيع هباء منثوراً باستيلاء نظار الأوقاف لجمع المدارس الأموال من كل جانب فمن ميزانية الدولة ومن ريع أطيان تفتيش الوادى بالشرقية التى خصصها الخديوى لذلك ثم عمل على أن يساعده أولياء أمور التلاميذ فجعل عليهم نفقات ضئيلة ليستطيع القيام بالمشروعات التعليمية فى أنحاء القطر المختلفة .

وقد بقيت مشكلة إعداد مدرسين للمدارس ليستطيعوا القيام بالتعليم فأسس مدرسة دار العلوم سنة ١٨٧٢ والغرض الأصلى منها تخريج أساتذة اللغة العربية واختار لتدريس بقية العلوم من أتموا دروسهم فى المدارس العالية كالهندسة والمحاسبة ومدرسة الادارة ( الحقوق ) وبعد إنشاء دار العلوم أعظم عمل أسداه المترجم لأحياء اللغة العربية وآدابها

وأعماله فى هذا الدور من حياته تدل على أنه كان يرمى إلى تقوية ناحيتين من نواحى الضعف فى الأمة ناحية الذل والاستكانة للحكام وناحية التثقيف والتعليم بإصلاح المدارس وتأليف الكتب وليس أدل على ذلك من وزير بلغة وزارات يديرها من الصباح إلى المساء

ثم مع ذلك لا يغفل التفتيش على المدارس بنفسه ومناقشة التلاميذ فكان هذا الرجل العظيم يدنى الطالب منه فيحدثه فى دروسه ثم يسأله عن بلده وعن حال أهلها وعما يقولون للطالب وهو يقضى معهم أيام المساعات فاذا اطمأن وزالت عنه الوحشة وهيبة الباشا قال له : اسمع يابنى أندرى لم أحدثك وأطلب منك أن تتمرن على الحديث معى ؟ إننى ناظر ؛ أنا أكبر من مديركم فاذا ذهبت إلى بلدك ووجدت الناس يشكون من عيوب فى الادارة فلاتهيب أن تذهب إلى المدير وتعرض عليه شكوى الناس وما دام الناظر يحدثك وتحدثه فأنت على مقابلة المدير والتحدث معه أقدر

مصطفى حسن مخلوف
المدرس بالمدارس بالخطا

---

# شأن

جليل لا تحقره تفاهة المادة ، خطير لا تصغره حداثة المتعلمين ذلك شأنك أيها المعلم فقيم التطلع إن قدر أعلى وشأن أرفع ؟ وليس فيما أعلم ويعلم كل عاقل أرفع رتبة ولا أشرف مهنة من معلم يقوم بواجب مهنة ويترسم أمثل الطرق لتربية أبناء أمته

ما الناس دونك إلا واحد من اثنين مرتو من بحر فيضك أو مجتن من طيب ثمرك . وما الولاة والقضاة الا قوام على غرسك

لك فى الحياة شأن يغنيك ، وبعد الممات ثواب يرضيك . لك فى الحياة ذكر عاطر ، وبعد الممات نعيم فاخر

وإن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحيتان فى البحر يصلون إلى معلم الخير ، فكن أنت ذلك المعلم باخليفة المرسلين لا تحتقر شأنك ، ولا تستهن بعملك ، واعمل على كسب شرف المعلم : أصدق اذا حدثت ووف بما وعدت ( ودع ما يريبك إلى ما لا يريبك ) واترك مالا يعنيك إلى ما يعنيك فهذه دعائم رتبتك ، ومعارج بيئتك . تبلغ بها مالا تبلغ بالحسب ، وتنال بها مالا ينال بالنسب . روى أن رجلا وقف على لقمان الحكيم وهو فى حلقة عظيمة من الناس يعلمهم فقال له : ألست عبد بنى فلان ؟ قال بلى . قال : فما الذى بلغ بك إلى ما نرى ؟ قال : قدر الله ، وصدق الحديث وترك مالا يعنى : فهذا لقمان الذى أوتى الحكمة . سئل عما جمع القلوب حوله ، ورفعه إلى رتبة المعلم فأجاب بما سمعت . أما قدر الله فلا سبيل إليه وأما صدق الحديث وترك مالا يعنيك فمن أوجب الواجبات لدينك ومن ألزم الصفات لعدالتك فأن تخليت عنهما فلا تلومن من يسيء بك الظن .

محمد موسى رشدى (مدرس بالجيزه غريبه)